الرَّجْعُ القَريب

بُحوثٌ مُهداةٌ إلى أستاذي

الدّكتور إحسان عبّاس (رحمه الله)

د. خالد عبد الرؤوف الجبر

دار جرير للنشر والتوزيع

٢٠١١

الرّجْعُ القرِيب

عنوان الكتاب: الرّجع القريب
المؤلّف: د. خالد عبد الرؤوف الجبر/ الأردنّ
الطّبعة الأولى (٢٠١١)
النّاشر: دار جرير للنّشر والتوزيع، عمّان/ الأردنّ

حقوق الطّبع محفوظة

الإهداء

إلى مَنْ لامسَتْ ذائِقَتي الشِّعْرَ في مِحْرَابِه، ووجدْتُنِي إذْ وجَدْتُه

إحسان عبّاس

عِرْفانًا بِما انْسَرَبَ إليَّ مِنْ فَيْض،

وما انْهالَ عليَّ مِنْ هَدْي،

وماسَّنِي مِنْ جِلاء!

خالد

المُحتوى

تسلسل	الموضوع	الصفحة
١.	الإهداء	٥
٢.	توضيح ضروريّ، بقلم الأستاذ الدّكتور إحسان عبّاس	٧
٣.	مقدّمة	١٥
٤.	استبدال الخمر بالأطلال: أبو نواس في بعض أشعاره	١٩
٥.	المظاهر الحضريّة: العبّاس بن الأحنف في غزله مقارنةً بغَزِلي البادية	٤١
٦.	بنية القصيدة: أبو تمّام في قصيدتِه "فتح عمّورية"	٦٧
٧.	الثابتُ والمتحوّل: المتنبّي في لاميّته "ما لنا كلُّنا جَوٍ يا رسولُ"	١٠٩
٨.	في ضوء النقد الحديث: المعرّي في داليّتِه "غيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعتقادي"	١٢٩
٩.	الموازنةُ بين المُعارضات: بين أبي نُواس وابن درّاج القسطليّ في رائيّتيهما	١٤٥
١٠.	قصيدة القاعدة: ابن درّاج في قصيدتِه "أَخْلِقِ الدّهرَ بقاءً واستجِدُّ"	١٧١
١١.	مسرى الخطاب النّفسي ومِعراجُه: ابن زيدُون في سينيّتِه "ما على ظنّيَ باسُ"	١٨٥
١٢.	جدلُ الذّاتيّ والموضوعيّ: ابنُ خفاجةَ في قصيدَتَي "الجَبَل" و"القمر"	٢٠١

توضيح ضروريّ

بقلم الأستاذ الدّكتور إحسان عبّاس

كانت الجامعةُ الأردنيّة تعهَد إليّ في بعض الأعوام بتدريسِ مادّتين : دراسات في الأدب العبّاسيّ في الفصل الأوّل، ودراسات في الأدب الأندلسيّ في الفصل الثاني . وكنتُ أعلم أنّ الموضوعينِ كبيرانِ ربَّما لم يتّسع الفصلُ إلاّ لجانبٍ محدود من كلّ منهما، ولذلك كنت أركّز على تدريس نصوص مختارة من الأدبين . وكان ممّا يقوّي اختياري للنّصوص – دونَ سواها – افتراضي أنّ الطّلبة قد أ لَمّوا في السّنوات السّابقة بمقدّمات في الأدبين العبّاسيّ والأندلسيّ، وأنّهم في السّنة الأخيرة، وقبل كتابة رسالة الدّكتوراه، بحاجة إلى نقد تطبيقيّ أكثر من حاجتهم إلى نظريّات نقديّة . أضفْ إلى ذلك أنّ التّمرينَ على النّقد يتطلّب أن يكون النصُّ جديدا لم يُدْرَس من قبلُ، وأن يكون ذا حظٍّ غيرِ قليل من البناء المحكَم، والجمال في الصُّور والمميّزات الفنّيّة الأُخرى اللافتة للنّظر.

وكنتُ، في طرحِ كلٍّ نصّ بين أيدي الطّلاّب، أضعُ بعض المفاتيحِ التي أعدّها ضروريّة للإعانةِ على اكتشافِ العناصرِ التي تميّز القصيدة، دون أن يكونَ لي تدخُّل في شيء من جماليّات القصيدة، بل بعدَ القراءة الأولى والثّانية أستنفرُ هِمَم الطّلبة – وهم في الواقع قليلو العدد – فيبدأ طالبٌ بطرح فكرةٍ حول ظاهرة في القصيدة، فيدور الحوارُ حول تلك الفكرة؛ بين الطّالب وزُملائه، ثمّ بيني وبين صاحب الفكرة، والتّأمّل في مدى صواب ما اقترحه زملاؤه. ويأتي طالبٌ آخر بظاهرة ثانية في القصيدة، وهكذا يستمرّ حَفْزُ الطّلبة الآخرين إلى إبداء وجهات نظرهم في ظواهرَ أُخرى، ويجري الحوارُ موسَّعا بين جُمهور الطّلبة وأستاذِهم؛ حول الظّواهر، وأيُّها أجدرُ بالتّقديم، وكيفَ يكونُ ترتيبُها.

وفي اللقاء التالي يأتي كلّ طالب وقد أعدّ بحثًا حول القصيدة، وأهمّ مميّزاتها . ومع أنّ الظّواهر قد اشتركَ معظم الطّلاّب في التّنويه عنها، إلاّ أنّ البناء الكِتابيَّ حول القصيدةِ يجيءُ مُتفاوتًا؛ كلٌّ واحد يختار بدايتَه الخاصّة، ويكتبُ بأسلوبه الخاصّ، ولدى مزيد من التّأمُّل

يهتدي إلى ظواهرَ لم يُشِرْ إليها أحد.

وكان المجلِّي في هذا الميدان؛ الرّجل الذي يفاجئُني كلّ مرّة بجديدٍ يمثّل اكتشافَه الذّاتيّ، هو خالد عبد الرّ ؤوف الجبر؛ الذي كنتُ أستمتعُ بقراءةِ بُحوثِه، وأجدُ فيها شخصيّة ناقدٍ أصيل؛ إذ لا بُدَّ له في كلّ قصيدةٍ أن يكونَ هو صاحبَ قصبِ السَّ بقِ في اكتشافِ ظواهرَ جماليّة لم تخطُر لأ حدٍ من زملائه، ولولا أن يُحْمَل كلامي على المبالغةِ لقلتُ: وأظنُّها لم تخطُر لأستاذِه أيضا!

كان خالد متميّزا على أقرانِه؛ لأنّه — فيما يبدو لي — كان قد درّب نفسه على النّقد التّطبيقيّ، وكتابة البحوث، بدافعٍ من نفسه، لا بتكليفٍ من أساتذتِه؛ حتّى مهَر في معالجةِ أيّ نصٍّ يعرِضُ له. وكانَ أيضا إلى جانبِ دُرْبتِه، يفيءُ إلى بعض المناهجِ النّقديّة الحديثة، وأقولُ — دون تردُّد — لقد وجدتُ فيه ناقدًا ناضجًا؛ لا يحتاجُ — كزُملائه — إلى تمهيد الطّريق بالإشارات والتّلميحات، ولا يحتاج كثيرًا إلى ما سمّيتُه المفاتيحَ.

إنّني حين أنظر إلى هذا المحصول الباهر؛ الذي كان وليد فترة وجيزة، أشعر بالاعتزاز إذ أجد هذا النّتاج الغزير الذي يشهدُ ببراعةِ خالد، وقدرتِه على صياغة هذه البحوث النّقديّة، وفي النّضج الفكريّ في الاستواء وطريقة العرض. إنّ خالدًا كان يتطلّب التّجويد والتّأمّل الطّويل ليُرضي نفسه، ولأنّه كان يعرفُ أنّه لا يرضيني إلاّ العمل الم تقَن. وإذا كانت هذه هي المرّة الأولى التي ينشرُ فيها أحد تلامذتي بحوثَه التي كتبَها، وقدّمها إليّ، فإنّني أتمنّى أن لا تكونَ الأخيرة.

وفّق الله خا لدًا؛ فقد وجدتُ فيه طالبا مُخلصا للبحث الأدبيّ، وللأدب العربيّ، وسوفَ تُثبت الأيّام — إن شاء الله — أنّ إيماني بخالد، وبدوره في النّقد والأدب، كان مبنيّا على معرفةٍ دقيقة. فإلى الأمام يا خالد، حفظَك الله ورعاك.

إحسان عبّاس

عمّان في الخامس من شباط عام ٢٠٠٢م

مقدّمة

سُبحان من أجلّ العقول المتدبّرة بقُدرتِه، وأنار لها سُجُف الظّلام بهديه، وجعل لكلّ قلبٍ ما يُعينه على البصّر ما شاء، ورزق الحكمةَ والعلم بما شاء لمن شاء، وبعد،

يجمع بين هذه القراءات جوامعُ كثيرة، أهمّها أنّها قُدِّمت بوصفها بُحوثا لأستاذنا الدّكتور إحسان عبّاس؛ منارة أهل العلم بالأدب والنّقد، على مدار السّنة الأولى التّمهيديّة للدّكتوراه في الجامعة الأردنيّة (٢٠٠٠-٢٠٠١)، إذ كان للباحث – ولن يزال – شرفُ التّلمذة له؛ عالمٌ تكفيك منه اللمحة الدّالّة، والإشارةُ اللطيفةُ إلى كوامنَ وغوامضَ، فكأنّما يغُوص بك في طبقات المعنى، أو يصَّعَّدُ بك في مدارج الدّلالة؛ لا تكفيه النّظرة إلى الأصداف والقشور، بل يفيء منه مريدُوه إلى اللبِّ والجوهر، مدركينَ لذّةَ المعرفة، وسعةَ أفقِ العارفين.

وقد تفضّل قبلُ حين لم يتوان لحظةً عن التّوجيه والإنارة والاستثارة، ثمّ تفضَّل بعدُ إذ رأى في هذه القراءات ما يستحقُّ النّشر؛ وحثّ على نشرها، بل تكرّم بأن قدّم لها، فهو صاحبُ فضل على فضل. وإذا كانت هذه المحاولاتُ نتيجةً لما استدْعته المدّةُ له، فإنّه قد فتح للباحثِ آفاقًا، وبصّره منذ البدء بما ينبغي للنّاقد التّطبيقيّ أن يكون عليه . ليس هذا اعترافًا بالفضل حسبُ، إنّما هو مقاربةٌ لحقيقة ليست غائبةً عن أحد.

وهي محاولاتٌ في النّقد التّطبيقيّ على مجموعة من النّصوص الشّعريّة العبّاسيّة والأندلسيّة، كان القصدُ منها إلى أن تكون في النّقد التّطبيقيّ دون إغفالِ ما يقتضيهِ ذلك من تنظير أحيانا . ولكنّ الباحث لَمّا وجدَ الهُجومَ على القصدِ أحلى، والانتفاعَ بما في الأنظار غايتُهُ عُبورُ النّصوص، آثر الاقتصارَ من التّنظير على ما يبلّغ المرام، من دون ليِّ أعناق الكلام ليوافقَ منهجًا بعينِه، ما وجدَ إلى ذلكَ سبيلا، أو يُعاضدَ فكرةً لاحت له من قبلُ. ولعلّه ليس صاحبَ منهجٍ واحدٍ في هذه القراءات، بل كان المنهجُ مستَقىً من النّصّ نفسه في كلِّ مرّة.

وقد عالج الباحثُ هذه النّصوص بعد قراءة كلّ نصّ منها عدّة مرّات قبل الخوض في تحليله، وكان يُحاول اجتنابَ العودة إلى ما قال غيرُه فيها؛ مُحاذرًا أن يُعَدَّ فيمن يؤثرون

اللُقَطَة والجمع، والتّلفيقَ أو التّوفيق، فمؤدّى ذلكَ أن تكون القراءة النّ قديّة لوحةً متنافرةً تتراكمُ فيها آراء ومناهجُ متباينة، وكأنّ غرض النّاقدِ — والحالةُ هذه — أن يبحث عمّا يؤيّد وجهة نظره في النصّ ممّا ارتآه غيرُه من النقّاد أو مؤرّخي الأدب!

لقد بذل الباحثُ وُسْعَه في استنطاق كلّ نصّ أو مجموعة من النّصوص، واستبطانها — ما استطاع — مُحاولا عُبور النّصّ إلى الضفّة الأخرى المقابلة للبنية اللغويّة . وعلى افتراض قيام تلك الضّ فّة فإنّها في الأغلب الأعمّ كانت في إطار التّفريق بين الذّاتيّ والموضوعيّ عند المبدِع. ولم يألُ جهدًا في التّوكيز على هذه القضيّة؛ إذ لا يزالُ القريب إلى النّفس أنّ ذاتيّة الشّاعر لها القول الفصلُ، وأنّها منبع الإبداعِ وإن كان الشّاعرُ يقولُ — أحيانًا بدافعٍ خارجٍ عن ذاتِه. وبهذا الاعتبار يمكنُ القول بأنّ منهجَ مقاربةِ نفسيّة المبدِع (لا منهج التحّليل النّفسانيّ الفرويديّ) كان عُمدةً في بعض التحّليلات.

ولعلّ ثمّة إمكانيّاتٍ جمّةً في إعادة دَرْس النّصّ الأدبيّ، لا سيّما النّصّ الشعريّ، في ضوء الممايزةِ بين ما يراهُ المبدعُ ويرضاه، والذّوق الفنّيّ السّائد الذي يُرضي عصرَه، أو بين ما هُو سمتٌ خاصٌّ به لحظة الإبداع وما يريدُهُ المقولُ فيه أو له . وبين هذا وذاك تتكشّف فوارقُ كثيرة، قد تقودُ إلى فهمٍ أ جْلى للنّصّ الإبداعيّ، وتكشفُ عن تبايُن مستَوياتِ الإبداع عند الشّاعر نفسه في نصوص متعدّدة، أو عند مجموعة من الشّعراء في نصوصٍ يجمعُها غرضٌ شعريّ واحد، أو زمنٌ شعريّ واحد.

وقد يجد قارئ هذه المحاولات تركيزًا على الجوانب اللغويّة في النّصوص المدر وسة؛ أي البنية اللغويّة للإبداع فيها، بما تحمل في ظلالِها من إبانة عن الهُموم والقضايا، وبما تُخفي أحيانا الأغراضَ والنّوايا، وبما تكشفُ أحيانا أخرى عن وُعورة المسلَك واختلالِ التّوازُن في البناء . ولم يتبنّ الباحث المنهجَ البنيويّ حين درس قصيدة أبي تمّام في فتح عمّورية، أو قصيدة القاعدة لابن درّاج القسطليّ، ولكنّه رأى إلى استساغة هذا المنهج في درسِهما بناء على قصديّة كلّ من الشّاعرين إلى إحكام البناء في قصيدتِه، فنجح الأوّل، وفشل الآخر!

أمّا توثيق النّصوص قيد الدّرس فلم يجتهد فيه الباحث كثيرا، بل تُركت على ما هي عليه، إيثارًا لأن تبقى المحاولاتُ على حالها أيّام كُتِبت وسُلِّمت لأستاذنا إحسان عبّاس،

ورغبةً عن التّوثيقِ الذي يظنّه الباحثُ ليس غايةً في النّقد التّطبيقيّ، إلاّ ما كان مقبوسًا على طريق إثبات فكرةٍ في النّصّ، وإلاّ فهذه القراءات بعضُها لنصوص يحويها ديوانُ الشّاعر نفسه، أو لقصيدة من ديوان شاعر.

ولا سبيل إلى ادّعاء الكمال ولا الجمال لما أُثْبِت في هذه القراءات؛ إن هي إلاّ محاولاتٌ خيرُ ما تُوصفُ به ما قاله أستاذنا إحسان عبّاس، حين عدّها محاولاتٍ رغب كاتبُها في أن يجوِّد ويجدِّد، وحسبُ المحاولِ استفراغُ الجهد، واستنفادُ الوُسْع.

خالد عبد الرؤوف الجبر

عمّان في الخامس والعشرين من شباط عام ٢٠٠٢

وأُضِيف بعدَ انقضاء أعوام ثمانية:

يا سيِّدي، كنتُ أخشى أن أخيِّبَ ظنَّك، وخشيتُ أكثرَ من ألسنةٍ حِدَادٍ قد تقْرِضُني ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمالِ ، فبقيتُ متّكِئًاعلى ذِكراكَ زمنًا أجهدتُ فيه عقلي وقلمي بحثا وتحقيقا وتدقيقا وتحريرا لأبلُغَ الغايةَ التي رسمتَها لي . والآنَ، بعدَ رحيلِكَ الفِضِّيِّ، أُونسُ ناركَ، وأجرؤُ على بثِّ ما أردتَ بعثَه . فَجِدْ لي العُذْرَ إذ أطرِّز محاولاتِي هذه بخطِّ يمينك، لعلّها تسكِّنُ نائرةً، أو تُطفئُ ثائرةً ، ورَثْتُ عنكَ الخشيةَ كلَّ الخشيةِ منهُما... يا سيّدي، في هذا الزّمانِ المرّ

ليسَ مَنْ ماتَ فاسْـتَراحَ بِمَيْتٍ   إنّما الْمَـــيْتُ مَيِّتُ الأحْـــياءِ